(c) https://nidaulhind.blogspot.com

مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٤٣ العدد ١

١٩٩٢م

المجلس الهندى للعلاقات الثقافية
آزاد بوان، نيو دلهى
الهند

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

مجلة **ثقافة الهند** فصلية

المجلد ٤٣ العدد ١

١٩٩٢م

محتويات هذا العدد:

٥٨ـ٧١ غاندى فى الأدب العربى الحديث

د/عمر الدقاق (جامعة حلب)

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

غاندى فى الأدب العربى الحديث

بقلم: الدكتور عمر الدقاق، جامعة حلب

تعود الصلات الحضارية بين العرب و الهند إلى أزمنة موغلة فى القدم ، و لعلها فى قدمها ترجع إلى ما قبل زمن التاريخ. فقد كانت ثمة علاقات تجارية و روحية مشتركة خلال حقبة سالفة من السنين، ثم ما لبثت تلك الأواصر أن تواشجت بين أمة العرب و أمة الهند فى إثر ظهور الإسلام، فازداد التمازج الحضارى عمقا و ثراء على الصعيد الأدبى و الدينى و السياسى و الاجتماعى و الاقتصادى.

لقد تبوأت حضارة الهند و ثقافتها منزلة سامية لدى العرب الأقدمين ، و كانت موضع الإعجاب و التقدير عبر العصور. و إذا تجاوزنا أعدادا وفيرة من التجار العرب الذين زاروا فى الماضى بلاد الهند و عرفوا الكثير من شئونها، فلا بد من الإشارة إلى بعض مشاهير الرحالين العرب الذين جابوا تلك الربوع المترامية الأطراف، و ساحوا فى أصقاعها و دونوا الكثير مما سمعوا و رأوا فيها ، جاعلين كل ذلك فى كتب قيمة عديدة، تحدثوا فيها عن مناخ الهند و طبائع أهلها، و عاداتهم و تقاليدهم، و حضارتهم و ثقافتهم، و أفكارهم و معتقداتهم. و كان فى طليعة ذلك مؤلفات المسعودى و البيرونى و ابن بطوطة (١) ... كما زخرت كتب الأدب العربى و سواها من كتب الملل و النحل و مؤلفات الحكمة و الفلسفة، بالجم الغفير مما يتصل بذلك التراث الهندى الحافل.

و يكفى أن يشار فى هذا الصدد إلى حكايات كليلة و دمنة ، و قصص ألف ليلة و ليلة، التى تعد من أبرز ملامح المؤثرات الحضارية الهندية فى الأدب العربى ... كما أن بصمات العقل الهندى كانت واضحة لدى العديد من أدباء العرب و مفكريهم و متصوفيهم.

و يبدو أن الصلات العربية الهندية قد فترت بعد ذلك، بتأثير الركود الحضارى الذى ران على أمة العرب و أمة الهند أيضا خلال عصور الإنحدار ...

To: www.al-mostafa.com

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

ثم انبعث تلك الأواصر السالفة فى هذا العصر الحديث إثر النهضة العربية، و لاسيما إبّان الطغيان الاستعمارى الذى قرن العرب و الهنود تحت نير واحد، و كان لوحدة المصير و المعاناة المشتركة تبعا لذلك أمضى الأثر فى زيادة التقارب بينهما... و قد انعكس ذلك إلى حد كبير فى تنامى العلاقات السياسية المطرد بين الهند و البلدان العربية و تجلى فى تأييد الهند الراسخ و المستقر للقضايا العربية، و على رأسها القضية الفلسطينية.

و مع ذلك يبدو للباحث أن ما بلغته العلاقات العربية ـ الهندية فى هذا العصر الحديث لم يبلغ المدى الذى بلغته فى العصور الماضية من قوة و مضاء. و من ثم فان هذه العلاقات و أصداءها تبدو باهتة الملامح فى أدبنا العربى الحديث. و لعل من أبرز منازع اهتمام العرب بمعطيات الهند الحديثة على صعيد الفكر و الأدب شغفهم الكبير بالشاعر طاغور الذى كان أول أديب من الشرق يحظى بجائزة نوبل للآداب. ثم كان ثمة التفات مقارب بين العرب المسلمين إلى الشاعر الفيلسوف محمّد إقبال ... و يعد جرجي زيدان فى كتابه *تاريخ آداب اللغة العربية* ثم أحمد أمين فى كتابه *ضحى الإسلام* و من بعدهما طه حسين و عبدالوهاب عزام فى طليعة الذين عنوا بالمؤثرات الهندية فى التراث العربى عناية فائقة و أولوا النتاج الإبداعى الهندى اهتماما خاصا.

و كان العرب و المسلمون ينظرون إلى حركة التحرر الهندية من قبضة الاحتلال البريطانى نظرة إعجاب، و يواكبونها بمشاعرهم فى كثير من الترقب و الاشفاق و الأمل.

و قد انعكس ذلك لدى رجل الإصلاح الكبير السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٩٧م) الذى زار الهند و أبدى تجاوبا قويا مع كفاحها البطولى و قضيتها العادلة، و من مشهور قوله مخاطبته جماهير الهند (٢): " و عزة الحق و سر العدل، لو أن ملايينكم مسخت ذبابا، لأخرجت الانكليز بطنينها من الهند، و لو انقلبت سلاحف و خاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذتبها إلى القاع ".

و على صعيد آخر كان من أقوى عوامل انبعاث هذه العلاقات المتواشجة بين أمتى العرب و الهند بزوغ زعامة غاندى خلال النصف الأول من القرن العشرين على ذلك النحو الباهر الذى انتزع إعجاب الأمم و تقديرها ، و فى مقدمتها شعوب الأمة العربية.

فحين يتغلب المرء على فرديته ، و ينكر ذاته، و يقهر أنانيته، و حين ينذر نفسه، و يرخص روحه ، و يحتسب حياته فى سبيل عقيدة يؤمن بها و مثل يعتنقها ، إذ ذاك يتسم بالسمة الإنسانية، ذاك ما كانه غاندى. هو ذا انسان، إنسان لم يكن ينتمى إلى الهند وحدها، و لكنه تجسيد حى لما يضطرب فى نفوس البشرية المعذبة من نزوع الى التحرر و الكرامة و السلام.

لقد بلغ من انسانية هذا الرجل أنه كان يبدو للكثيرين من طبيعة متميزة، و أنه يختلف عن سائر الناس، و كأنه واحد من أنبياء التوراة. و قد

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

أشار انشتاين إلى أن الأجيال القادمة قد تجد من الصعب عليها أن تصدق أن رجلا كهذا كان انسانا من لحم و دم، يسعى على الأرض. على أن غاندى فى بساطته المتناهية لم يتعد أن يكون رجلا، كما نعتته انديرا غاندى حين قالت عنه: " فى رأيى أن غاندى لم يكن مجموعة من الآراء و التعاليم الجافة ، بل رجلا يشع حياة ، رجلا يحرص على أن يذكرنا بأرفع المستويات التى يستطيع الإنسان أن يبلغها".

هذا الرجل الذى كان للإنسانية كلها فى أصالته و سلوكه و فى نضاله الفذ المتفرد كان فى الوقت نفسه لشعبه و وطنه ، كان للهندوس و المسلمين ، كما كان للصعاليك و المنبوذين، و كان أخيرا للشرق البائس و شعوبه المتلهفة على الحرية.

غاندى الذى ملأ الدنيا و شغل الناس طوال النصف الأول من قرننا العشرين كان له حيز كبير فى ملحمة الكفاح العربى، كما كان للعرب فى تفكيره منزلة عالية . و قد لا نرى فى الأمر بدعا إذا أوغلنا فى حنايا الماضى و اجتلينا معالم التاريخ. فغاندى لم يكن إلا حصيلة تفاعل عريق بين الهنود و العرب تعانقت خلاله حضارتاهما كأبهى ما يكون التعانق الحضارى بين الشعوب على الصعيد الإنسانى الرفيع.

و لعل الإسلام هو النافذة الواسعة التى أطل منها الشعب الهندى على رسالة العرب. و مع أن الوجود العربى الإسلامى قديم فى الهند قدم الإسلام نفسه، فإن العصر الإسلامى فى الهند كما يقول غوستاف لوبون: " يبدأ فى القرن الحادى عشر و ينتهى من الناحية السياسية فى القرن الثامن عشر للميلاد. و هذا العصر عرف أحسن مما عرف أى عصر جاء قبله بفضل مؤرخى المسلمين. (٣)

و يحرص لوبون على توكيد الذات العربية فى الحضارة الهندية باعتبارها رافدا كبيرا لتراث الهند و مدنيتها و ثقافتها. و فى ذلك يقول أيضا: "إن تاريخ الحضارة الإسلامية فى الهند إنما هو بعث لتاريخ حضارة العرب. فمسلموا الهند لم يدخلوا إلى الهند بالحقيقة سوى حضارة العرب، بعد أن تحولت بعض التحول فى بلاد فارس، بفعل الأزمنة و الأمكنة. و المسلمون حين أدخلوا حضارة العرب إلى الهند أدخلوا معها رغبة كبيرة فى العلوم و الآداب و الفنون ... و طراز البناء الذى أتى به المغول إلى الهند هو كديانتهم من أصل عربى كان قد تحول إليها حين مروره من بلاد فارس."

فإذا مارحنا نلتمس هذا التفاعل الفكرى و التمازج الحضارى بين العرب و الهنود تجلى لنا بصورته الزاهية فى غاندى، فى تعاليمـــه، و فى ســلوكه ، و فى أقواله و من هذا القبيل ما ذكره خلال مراحل نضاله الشاق الصابر فى جنوب إفريقيا فى مستهل حياتـــه إذ قال (٤): " كان اتصالى ببعض الكلمـات

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

و العبارات العربية بادئ الأمر عن طريق الكلمات العربية المبثوثة في هذه اللغة الأوردية، من خلال اتصالى السابق بأصدقائى المسلمين " أما أصدقاؤه المسلمون فما كان أكثرهم ، و كان منهم رفاق الكفاح العاثر فى إفريقيا و فى الهند على حد سواء. فالشيث داؤود محمّد ، من أبرز رجالات الجالية الهندية فى جنوب إفريقيا. و قد عانى السجن و حظى بإجلال غاندى حتى خصه هذا بفصل من كتابه " قصة اللاعنف " عدّد فيه مناقب كفاحه. كما خص بفصل آخر المجاهد الهندى أحمد محمّد كاتشاليا و قال عنه (٥): أنا لم أعرف قط عمرى كله، سواء فى جنوب إفريقيا أو فى الهند رجلا يفوق أحمد محمّد كاتشاليا شجاعة و ثباتا. لقد ضحى بكل ما يملك من أجل الجالية. إنه مسلم حنيف ، كان ينظر إلى الهندوس و المسلمين كمن لا يفرق بين عينه اليمنى و عينه اليسرى." و قد دأب غاندى على ابراز الدور الطليعي لرفاق الكفاح من المسلمين كالإمام عبدالقادر باوزير و شوكت على و أحمد بهايات و يوسف اسماعيل ميان و آبي الكلام آزاد، فضلا عن المناضل الافغانى عبدالغفار خان الذى لقبه الهنود بغاندي الحدود. أما ملازمة زعيمى المسلمين محمّد علي جناح و شقيقه الأكبر لغاندى فكانت صفحة ناصعة تسجل ذورة ما بلغته وحدة الهندوس و المسلمين. و فى منزل محمّد علي، صديق غاندى، آثر المهاتما أن يقوم بالتجربة القاسية، يؤويه المسلمون و يعنى به أطباء مسلمون، و قد قدّم له المسلمون آخر طعام قبل الصوم، و أول طعام قبل انقضائه، وفقا لطقوس الديانة الهندوسية (٦). و فى مقابل ذلك يصور لنا غاندى جانبا آخر من هذه الحياة المثلى التى كانت تتجلى فى التحام شطرى الهند المسلم و الهندوسى و التى كان المهاتما يتحرق تطلعا إلى دوامها . فيقول: " عندما كان يهل شهر رمضان كنا نستشعر أن من واجبنا أن نشجع رفاقنا من الفتية المسلمين على الصوم. بل كنا نطهو لهم الطعام. و مشاركة لإخواننا المسلمين لم يكن أكثرنا يتناول غير وجبة واحدة فى المساء. (٧)

و قد ذكر فنسنت شيئان أحد كتّاب سيرة غاندى. " أن غاندى كان طوال حياته ، غريزة و فطرة و تعمّدا ، صديقا للمسلمين ، و قد قال مرة في جنوب إفريقية قبل عودته إلى الهند بزمن طويل : " إن الاختبار النهائى لـ " ساتيا غرها " ـ اللاعنف ـ سيكون من أجل الوحدة الهندوسية ـ الإسلامية ". (٨)

و كان غاندى شديد الاهتمام بمسألة الخلافة الإسلامية التى شغلت العرب و المسلمين حقبة من الزمان فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، و كانت فى الوقت نفسه معقد محادثات بين الهندوس و المسلمين. حتى إن غاندى نفسه توجه إلى دلهي عام ١٩١٩ لحضور المؤتمر الإسلامي الذى دعى رسميا إلى حضوره. فقد بدت آنذاك رغبة المسلمين شديدة فى الحصول على تأييد غاندى و سائر الهندوس.

و فى إثر إعلان (الساتيا غراها) اى اللاعنف أمست اجتماعات الهنود

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

فى الترانسفال بجنوب افريقية حاشدة إلى حد بعيد ، و كان أكبر اجتماع حاشد فى إثر ذلك قد عقد بزعامة غاندى فى صحن مسجد بريتوريا. (٩) و كان للقرآن العربى احترام لا حد له من قبل غاندى ، يتضح ذلك من قوله عندما كان فى إفريقية: " فى مزرعة تولستوى كنت حريصا على أن يتلو المسلمون القرآن." (١٠)

و قد تجلى إجلال غاندى للقرآن كتاب العرب، و لمحمّد نبى العرب، فى مناسبات قومية عديدة و لاسيما عندما كانت الفتن الطائفية تشب فى الهند حتى لا تكاد تبقى و لا تذر. فقد خطب جموع المتخاصمين بتفاؤل و ثقة: " إنى أقول لكم إن النور قد سطع، و لسوف يهدينا إلى الطريق المستقيم. إن الرسل يعيشون و يموتون و لكن رسالاتهم كثيرا ما تثمر بعد قرون عديدة. أجل فكم كان عدد أتباع بوذا حين مات ، و كم كان اتباع محمّد ... ؟ لقد عاشت تعاليمهما بعد موتهما ، لأن عقيدتهما تقوم على الحق الأبدى." (١١)

و بدافع من أصالة فكر غاندى و إنسانيته كان لايفتأ يجهر بتقديره لرسالة العرب التى تجلّت فى الإســـلام ، واجـــدا فى ذلك خير رافد لتعاليمـــه و حافز لثباته ، يقول: " تذكّر أن رسول اللّه هـــاجر من مكة إلى المدينـــة ، و معه صديقه ابوبكر . و قد تعقّبها نفر من الأعداء ، و خاف أبوبكر لما قد يحدث لهما. فقال لرسول اللّه: أنظر هذا العدد الكبير من أعدائنا الذين لحقوا بنا فماذا نفعل لو أنهم رأونا ؟ فأجابه رسول اللّه بقوله: ما بالك باثنين، اللّه ثالثهما." (١٢)

و أغلب الظن أن غاندى كان شديد اللهفة على لقاء العرب من كثب بعد أن عرف الكثير عنهم و عن حضارتهم و تراثهم و تاريخهم و دينهم فى بلاده ، و من خلال مؤثرات كثير من المسلمين الهنود. و عندما عنّت له الفرصة فى عام ١٩٣١، و هو متوجه إلى اوربا لبحث قضية بلده نزل فى شاطئ اليمن و خاطب مستقبليه من جماهير عدن الذين كانوا يرزحون هم و الهنود تحت نير عدو غاشم واحد، و كان مما قاله لهم: "إن هذه الجزيرة العظيمة ، جزيرة العرب التى ولد فيها محمّد ، و بعث فيها الإسلام ، مثل حى على التسامح الدينى و على انسانية الإنسان."

و مثل هذا التلازم بين العروبة و الإسلام الذى نلمسه فى كثير من مبارات غاندى و نصوصه كان فى الواقع و لعله مايزال إلى حدّ كبير حتى اليوم مألوفا أيضا فى أذهان كثير من العرب المسلمين، كما كان شائعا فى الوقت نفسه بين غالبية العرب غير المسلمين و غالبية المسلمين غير العرب.

و قد أشار المفكر الهندى أبوالحسن الندوى إلى: (١٣) " إن المسلم ينظر إلى العالم العربى كمهد للإسلام و مشرق نوره ، و معقل للإنسانية ، و موضع القيادة العالمية ". فقد كان من الطبيعى أن يشعر المسلم فى الهند أو فى سواها برابطة نسب واشجة تشده إلى العرب، يتجلى ذلك فى قول الفيلسوف الشاعر

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

محمّد إقبال :

أنا أعجميّ الدّن لكنّ خمـــرتى صنع الحجاز و روضها الفينان
إن كان لى نغم الهنود و لحنـهم لكنّ هذا الصوت من غدنـــان

و حين عبر غاندى قناة السويس عام ١٩٣١م حال المحتلون الإنكليز بينـــه و بين النزول بأرض مصر و لقاء شعبها الذى كان يضطرم ثورة على زبانية الاستعمار. و مع ذلك كان هذا المرور حدثا تاريخيا ينم على التجاوت العميق بين العرب و الهنود و شعورهم القوى بوحدة المصير. لقد كان غاندى بطلا شرقيا وجد فيه شعب مصر خصماً عنيدا للمستعمر، ذلك العدو المشترك. و قد أعرب مصطفىٰ النحاس رئيس الوفد المصرى آنئذ عن هذه الروح التى كانت تسرى فى جموع الأمة فى كلمته إلى غاندى قائلا: " باسم مصر ، التى تجاهد من أجل حريتها و استقلالها أرحب فى شخصكم العظيم بزعيم الهند العظيم ، الهند التى تحارب هى الأخرى لتحقق نفس الهدف " (١٤). كما أعربت السيدة صفية زغلول قائدة أول مظاهرة للنساء فى الوطن العربى إبان ثورة ١٩١٩ المصرية عن شعور مفعم بالإجلال تجاه الزعيم الشرقى الكبير (١٥).

و لعل أبرز من عبر عن حقيقة المشاعر العربية و مدى ما كانت تنطوى عليه من زخم تجاه الهند الصابرة و قائدها الفذ ، ما نظمه الشاعر أحمد شوقى إبان مرور غاندى بمصر ، إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن ، لمفاوضة الحكومة البريطانية حول استقلال بلاده. و قد يكون شوقى خير من يعكس ما يضطرم فى نفوس أمته من حيث انفعاله بآلامها و تجاوبه مع مطامحها و رصده الحى لأحداثها. إذ وجد فى قدوم عظيم الهند إلى مصر حدثا سياسيا و تاريخيا ، جديرا بكل حفاوة و إكبار. و قد خصّ شوقى رجل الهند بقصيدة دالية تناهز الأربعين بيتا قال فى مطلعها: (١٦)

بنى مصر ارفعوا الغار و حيوا بطـــــل الهنـــد
و أدوا واجبـــا و أقضـــوا حقـــــوق العـــلم الفـــرد

و قد وجد الشاعر المصرى فى الزعيم الهندى رجل وطنية و سياسة يغاير ما كان معهودا من رجال العصر و ساسته ، فرفعه إلى أسمى المنازل ، أنه لديه كالمهدى المنتظر أو شبيه الأنبياء و المرسلين:

نبى مثل كونفـــوشيو س، أو مـــن ذلك العهد
قريب القول و الفعـــل من المنتظـــر المهـــدى
شبيه الرسل بالـــذود عن الحق ، و فى الـزهد

و فى رأى شوقى أن تلك الطاقة الروحية الخلاقة التى جبلت عليها شخصية غاندى لا تعطىٰ إلاّ لذى حظ عظيم ، و كأنها هبة من اللّه الكريم إلى

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

عباده الطيبين، إنها ليست مستمدة من أسباب المادة و قوة المال و بطش السلاح:

و لكن هبة المـــولى تعالى اللّـــه للعبـد

كذلك كانت وقفة لازمة فى قصيدة شوقى تجاه الطائفية البغيضة ، تلك العلة المزمنة التى استشرت فى الهند استشراءها بين العرب، حتى غدت داء عياء لا برء منه ، فأين هذه النزعة الخبيثة مما أتى به غاندى فى رسالته السمحة السامية التى كان الوطن العربى يتحرق شوقا إلى مثلها ، أجل هذا هو غاندى المعلم القائد كما صوره شوقى:

لقـــد علّم بالحـــق و بالصبـــر و بالقصـد
و جاء الأنفس المرضـــى فداواهـــا من الحقـــد
دعا الهندوس و الإسلام للألفـــــة و الـــــودّ
بسحـر من قوى الروح حوى السيفين فى غمـد

و لعل أهم ما انطوى عليه مضمون دالية شوقى ربطها بين هموم الأمتين ، أمة العرب و أمة الهند تحت وطأة التسلّط الأجنبى، ففى إشارة خافية يلمح الشاعر الى سعد زغلول (١٩٢٧م) زعيم مصر و غاندى زعيم الهند، فيبرز من خلال ذلك ما كان من معاناته القاسية و مكابدته المريرة عبـــر نفيه الظـــالم و نضاله الدائب ، ثم ما كان من وحدة الآلام و المصيـــر المشتـــرك بين العرب و الهنود:

أخوكم فـــى المقاســـاة و عرك المـــوقف النكـــد
و فى الموقعـــة الكبـــرى و فى المطلـــب و الجهـــد
و فى الجرح و فى الـدمع و فى النفـــى من المهـــد

و ما أجملها من تحية يلقيها شوقى على غاندى ، هذا العظيم الضئيل لابس المئزر و صاحب المغزل و حالب المعزى:

سلام حالب الشـــــاة سلام غازل البـــرد ...

لقد غدا غاندى فى قلوب الملايين المستضعفة رمزا للزعامة الشرقية فى تحديها للغرب. هذه الروح الشرقية التى أخذت تنبعث بقوة لدى الجيل العربى فى مطالع هذا القرن بسبب الهجمة الاستعمارية الضارية على الوطن العربى و التى يمكن العودة بجذورها إلى حقبة الحروب الصليبية أخذت تتجلى بين العرب على شكل شعور غامض بالتعاطف بينهم و بين شعوب أخرى مقهورة فى هذا الشرق الكبير، وحّدت بين مشاعرها مواجع القيد فلم تعد تميز بين زعيم و زعيم من زعمائها ، فكانت تجد فى كل وقفة متمـــردة شفـــاء لجراحهـــا و ثأرا لكرامتها، من أن النزعة الشرقية لم تبلغ منزلة الرابطة الوثقى بين شعوب الشرق إلاّ أنها كانت تشغل حيزا كبيرا فى أذهان العرب، و ذلك نتيجة

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

للظروف التاريخية المشتركة التى أملاها الخطر المشترك الطارئ، من جهة، ثم ترجرج الأفكار و المفاهيم القومية من جهة أخرى. فجبران خليل جبران الذى ينتمى إلى لبنان و يدين بالمسيحية يحرص على أن يجعل لنفسه هويّة شرقية إذ يقول: " أنا شرقى، و لى فخر بذلك. و مهما أقصتنى الأيام عن بلادى أظل شرقى الأخلاق، سورى الأميال، لبنانى العواطف ". فالشرقية عنده عاطفة وطنية أو قومية واسعة. و على هذا الغرار نجده يدافع عن الشرق بحرارة و يحمل على الغرب بقوة إذ يقول (١٧): " لا ليس الغربى أرقى من الشرقى، و لا الشرقى أحط من الغربى "

و لعل من المفارقات أيضا أن غاندى نفسه لم يكن ليقيم مثل هذه الحدود بين الشرق و الغرب فكان يتسامى عليهما بروحه العظيمة على الصعيد الإنسانى الأمثل، فهو القائل (١٨): " لم تمرّ بى تجربة واحدة - خلال إقامتى فى انكلترا و أوربا ثلاثة أشهر - تجعلنى أشعر حقا بأن الشرق شرق و الغرب غرب. بل على العكس، قد زدت اقتناعا أكثر من أى وقت مضى بأن الطبيعة البشرية هى هى مهما اختلفت الظروف ". و لعل هذه العبارات بمثابة رد غير مباشر على الشاعر الامبراطورى كيبلنغ (KIPLING) الذى اطلق قولته: " الشرق شرق، و الغرب غرب، و لن يلتقيا ".

و مثل هذه الروح الشرقية الوادعة كانت تطل من حين إلى اخر من خلل الأشعار اللاهبة و الخطب الصاخبة التى كانت تملأ دنيا الأدب و السياسة فى مواكبة الكفاح العربى العاثر. ففى زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١م عبر عدد من الشعراء عن أجمل المشاعر تجاه الهند و زعيمها. و قد تجلت فى قصيدة أديب التقى (بين الشرق و الغرب) نفحة إنسانية وادعة، كأنها سرت إليه من روح الشاعر الهندى العظيم: (١٩)

حنانك، عهد الشرق هل أنت راجع
بما ينبغى أم ليس تحناننا يقضى
أ أحرار أهل الغرب أمّوا بلادنا
ترونا كراما لا نسرّ لكم بغضا
تعالوا إلينا، لا لفتح و غارة
لتستعبدوا حرا و تستعمروا أرضا
و لكن لترتادوا حقائق شرقنا
و تستمعوا للقلب عن كثب نبضا

و حين تكون شعوب العرب و الهند تحت نير واحد تغدو معالجة أوضاعهما فى النثر و الشعر العربيين أمرا طبيعيا بل لازما. حتى إن هذا التعاطف الشرقى كان يتسع ليشمل وثبة تركيا و نهضة اليابان و كفاح الصين ... غير أن الهند بقيت الموضوع الأثير فى الشعر القومى فى فترة ما

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

بين الحربين العالميتين و كأنها المثال البارز الدال على شراسة الاستعمار و زبانيته. فشاعر عربي كعمر يحيىٰ يخرجه الإنكليز من البحرين منفيا إلى الهند لا يرى فارقا بين بلدين شرقيين امتدّت فوقهما ظلال الاحتلال البغيض (٢٠):

أنا في الهند أرى الشرق و ما في حناياه من الداء الدفين
ضاق صدر الشرق عن أبنائه و حوى من قادة الغرب مئين
فلكم تضحك لمّا أن ترى بقرا ترعى و أقواما تهون
و لكم تبكي إذا شاهدت في ساحة الهند جموع البائسين
في هدوء الليل أقوام على قارعات الطرق فقراً نائمين
أسبل البؤس عليهم مزقا من ثياب و ظلاما من شجون

و لعل معروف الرصافي في طليعة شعراء العرب الذين عنوا بكفاح الهند و أحوالها ، كان يتحدث عنها بمرارة و أسى حديثه عن العراق و سائر بلاد العرب (٢١):

زر الهند إن رمت العيان فكم ترى
على الأرض من غبر هناك و من شعث

ثم يندد الرصافي الانكليز الذين جثموا على صدر الشرق و نهبوا خيرات العرب و الهنود:

و هم سلبوا أرض العراق سمينها
و لم يتركوا فيها منالا سوى الغث

و يبدي الرصافي اهتماما متزايدا بأحوال الهند، قارنا إياها مع العراق في وحدة المصاب و المصير:

إذا ما سمعت الهند في قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكبلا
تزجّيه كف الأجنبي مسخّرا فيمشي بأعباء الأجانب مثقلا
و يبرك أحيانا على الأرض رازحا له أنّة من ثقل ما قد تحملا

و لو قام هذا الفيل و استجمع القوى
لهز بها شمّ الجبال و قلقلا

حتى إن الرصافي يرى أن ارتباط العراق بالهند ارتباط مصيري، و أر تحرر العراق رهن بتحرر الهند:

و لو لم تكن بالفيل عندي علاقة لما رمت عن هذا الجواب مفصّلا
لنا حمل و هو العراق نظنه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فان ينج هذا الفيل من قيد أسره نجونا والا أصبح الأمر معضلا

لقد خاب ظن العرب في زعمائهم الذين كانوا يتلهون حول خسيس المغاذ

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

فراحوا يتلهفون على زعامة مخلصة كزعامة غاندى تأخذ بسفينة البلاد الغارقة إلى شاطئ السلامة. كان شاعر فلسطين ابراهيم طوقان دائب الإنذار و التحذير من النهاية المظلمة لوطنه و يتطلع أبدا إلى ذلك الربان الماهر بنظر اليائس القانط:

حبذا لو يصوم منّا زعيم مثل غاندى عسى يفيد صيامه

ثم يصف طوقان مرض الزعامة فى وطنه بسخرية مريرة:

مغرم بالبلاد صب و لكن بسوى القول لا يفيض غرامه
بطل أن علا المنابر، كرّاً رُ سريع عند الفعال انهزامه

و كما كان الكفاح السلبى المسالم أساس فلسفة غاندى السياسية ، كان مسلكه المتفرد فى امتناعه عن الطعام أيضا هو المنحى الذى ارتضاه فى الضغط على أعدائه و إثارة مشاعر قومه. فحين أعلن غاندى صيامه وقفت الهند معه وقفة رجل واحد، كما استبد القلق و التوجس لدى حكومة الانكليز من مضاعفات هذا الموقف. و قد واكبت صحافة العالم و أجهزة إعلامه هذا الصوم الغريب باهتمام شديد و اشفاق بالغ. و كان لذلك أيضا صدى بارز فى نفوس الأدباء العرب عبّر عنه عباس محمود العقاد فى قوله مخاطبا غاندى (٢٢):

أتيت إلى الدنيا العريضة عاريا و تقضى بها جوعا ، و ما عزّ ماكل
تركت لهم حتى الطعام ، فقل لنا على أى شىء بعد موتك تقبل
إذا البؤس و الحرمان كانا شفاعة لعالمك الأعلى ، فما هو أفضل
إذا كان ما ندعوه بؤسى غنيمة لمن يطلب النعمى فبئس المعوّل

ثم انجلت محنة غاندى عن نصر سياسى مبين، بفضل عزيمته، و التفات شعبه حوله ، فأذعن الانكليز لمطالب الهند، و عادت لغة المنطق و الحوار بدلا من لغة الحديد و النار ... و هكذا أفطر غاندى ، و كان لإفطاره رنة فرح و استبشار فى كل مكان. و كما توّج عباس محمود العقاد قصيدته السابقة بعبارة (*إلى غاندى حين أعلن الصيام*) أهدى قصيدته الأخرى (*إلى غاندى يوم إفطاره*) فراح يخاطبه بإعجاب غامر: (٢٣).

غندى لك النصر المبين على المدى و لشانئيك الخسر و الخذلان
لم ألق قبلك من يحرر قومه و هو السجين الجائع العريان

لقد رأى الشاعر العقاد أن داء الهند هو الجوع، فاتخذ غاندى من هذا الداء دواء:

بالجوع و الحرمان تصلح أمة أخنى عليها الدهر و الحرمان
خذ من قرارة دائهم لدوائهم ، بعض السقام من السقام ضمان

هذه الشخصية الآسرة التى انطوى عليها ذلك الجسد الضئيل و التى

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

صور ملامح صاحبها شاعر الهند رابندا ناث طاغور بأنها: "الروح العظيمة فى زى شحاذ" كأنما عناها أيضا شاعرنا القديم أبوالعتاهية فى قوله إنها " ملك فى زىّ مسكين ..." هذه الشخصية امتدت حتى استحوذت على قلوب الأدباء العرب فى مهاجرهم القصية بأميركا ، و كأنهم وجدوا فيها طرازا رومانتيكيا متفردا لا نظير له.

ففى قصيدة لألياس قنصل نراه يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد، فيتحدث عن الثورة السورية و بطش فرنسة بدمشق ، و عن نضال فلسطين و الإرهاب الصهيونى، ثم ينتقل فى القصيدة نفسها إلى كفاح الهند و زعيمها الأكبر ، بوحى من الشعور بوحدة القضية المشتركة ، واضعا غاندى فى مصاف الأنبياء (٢٤):

و ما غندى الضعيف سوى نبىٍ شبيـــه الأنبياء المرسلينـــــا

فقد كان غاندى قبلة أنظار العرب فى مهاجرهم الأميركية، يكنون له من الحب و الاحترام و من الاجلال و التقدير ما لايقل عما يكنه له الهنود. و من هنا أيضا كاد الشاعر القروى رشيد سليم الخورى يؤلهه و يرى فيه أمثولة فى الزعامة أنجبها الشرق، فكانت فخرا له امام الغرب.(٢٥)

من شط بحر الغانج زأر غضنفر أشجى لسمعى من هديل حمـــام
صوت يردده مسيـح الهنـــد فى دلهى لتسمع يا مسيح الشـــام

و الشاعر القروى الذى طالما ثارت ثائرته على استكانة قومه و تخاذل قادتهم ، أهاب بشعبه من وراء البحار أن هبوا إلى الكفاح هبة غاندى فى هنده. لقد أهلّ عيد الفطر على المسلمين بعد صيام شهر، و لكن شتّان ما بين صيام و صيام كما قال القروى (٢٦)

صياما إلى أن يفطر السيف بالدم و صمتا إلى أن يصدع الحق يا فمى
أفطر ، و أحرار الحمى فى مجـاعة و عيد ، و أبطـال الجهـاد بمـآتم ؟
لقد صام (هنـــدى) فجوّع دولـــة فهل صار علجا صوم مليون مسلم
تجشّم عن اوطانه صـوم عـــامد فجشّم اوطان العدى صـــوم مرغم
و خلّى عـــلوج الظـــالمين بـلاده تضيق بجيش العاطلين العـرمرم
و ألقى على (منشستر) ظل رهبة يضج بأشبـــاح الشقـــاء المخيـــم
أهـــاب بآلات الحديد فعطـلت مصـــانع كـــانت جنـــة المتنعّم
و شل دواليب الرخـــاء بصرخـة أدارت دواليب القضـــاء المحتـــمّ
كساها نسيج العنكبوت، و كم كست جســوم البرايا بالقشيب المنمنم
تهدّمهـــا أســرار نفس عجيبـــة تجـــول بذاك الهيـــكل المتهـدم
فيالك من عان ، لديه تصـــاغرت جبـابر أبدان و عقـــل و درهـــم
و راحت ملوك المال تشكـــو ببابه من الفقـــر: يا للظالم المتظـــلم ...

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

هبونى عيدا يجعل العرب أمة و سيروا بجثمانى على دين برهم
سلام على كفر يوحد بيننا و أهلا و سهلا بعده بجهنم

و على هذا القرار من النفس الملحمى مضى القروى فى قصيدته مشيدا برسالة غاندى رسالة التمرد و الإصرار.

و مخائيل نعيمة الذى كان قطبا آخر بين أدباء المهجر كان ذا إدراك عميق لحقيقة المنازع الشرقية التى تنطوى عليها الرسالة الغاندية. فقد وجد فى غاندى صورة أخري للمسيح تنطوى على الكثير من ملامحه ، و ما يتسم به فى رسالته المثلى المتجلية فى اللاعنف ، أ لم يردد غاندى نفسه موعظة المسيح على الجبل، حتى غدت بعد ذلك بالنسبة إليه نقطة انعطاف فى سلوكه و تعاليمه .. ؟ لقد بلغ من إعجاب نعيمه بغاندى أن أسماه " ضمير الشرق المستيقظ " (٢٧) ، كما راح يشيد بروحانية الشرق فى حماسة بالغة من خلال مقالات متعددة ، مثل : شرق بصير و غرب مبصر ، غرب حاكم و شرق محكوم، غرب يغرب و شرق يشرق ... (٢٨)

و إذا كان نعيمة قد وجد فى غاندى الإنسان كائنا روحانيا فذّا ، فقد وجد فيه فى الوقت نفسه بطلا قوميا فريدا. لقد حقق غاندى النصر لأمته ، فتم له و فى الوقت نفسه النصر المبين لرسالته. و فى ذلك يقول نعيمة: " أصبح المغزل فى يد غاندى أمضى من السيف .. و أصبحت الملاءة البسيطة البيضاء التى كانت تلف جسد غاندى النحيل درعا لا تخترقها مدافع أساطيل سيدة البحار. و أصبحت عنزة غاندى أشد بأسا من الأسد البريطانى ". (٢٩)

ثم يتوقف القلب الكبير الذى وسع قضية بلاده و مشكلات قومه. و كان لابد له أن يتوقف بعد أن أتم مهمتّه و بلّغ رسالته عبر مسيرة الصراع المرير بين الحق و بين القوة. فقد أوصل سفينة وطنه إلى شاطئ السلامة ، و حقق حلم الحرية ، فحق له أن يموت قرير العين. غير أن من المفارقات العجيبة أن هذا الإنسان الوادع الذى أمضى عمره أبدا داعيا إلى اللاعنف هو نفسه الذى سقط ضحية العنف، فكانت نهايته أبلغ نهاية ، و كأن شاعرنا العربى القديم قد عناه بقوله:

و كانت فى حياتك لى عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

و يكون لمصرع غاندى على ذلك النحو من الغدر صدى بعيد فى الوجدان البشرى، تجدد معه القول فى هذا الإنسان العظيم البسيط ، و تجلى فى إثر ذلك مذهبه الفريد الذى أشع على هذا العالم المتفجر. و كان صوت الأدب العربى، شعره و نثره فى فقده من أوفى الأصوات و أصدقها و أشجاها. و فى ربوع البرازيل القصية ، فى تلك الواحة العربية فى صحراء العجمة و الغربة تند من الشاعر فرحات عبارات رثاء شجية ينثرها سجاما مع دموعه ، فاذا هى أبلغ من الشعر. إنه يقول من خلال نثيرته " مصرع غاندى ":

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

" مات غندى ..... قتل غندى "

" إن اليد التى صبت السم فى كأس سقراط هى التى سمّرت الناصرى على الصليب.
" و هى اليد التى اطلقت الرصاص على غندى
" إنها يد التعصب الأعمى و الحقد الأصم.
" غندى الذى قضى حياته ملاكا بين فئات لاتحصى من أبالسة الهنـــادك و المسلمين و السيخ و المنبوذين ... مات قتيلا.
" مات الزعيم البرهمى الروحـــى الذى لم يحمل سلاحـــا ، و لم يباركه ، أو يبارك حامليه.
" كان يحب أعداءه و يبارك لاعنيه، فوا خجلة المسيحيين.
" مات الزعيم الذى حارب بسلاح الحق فدحرها ، فوا خجلة الأقوياء المستبدين.
" مات غاندى ... مات رجل الإنسانية الأوحد ، قتله أحد أبناء الإنسانية الحمقاء.
" إن الإنسانية التى توجت اللصوص و السفاحين ملوكا و أباطرة ... قتلت سقراط و عيسى و غندى.
" فويل لهذه الإنسانية المأفونة التى تحيى اللصوص و تقتل المصلحين.
" ويل لهذه الإنسانية من أبنائها المتعصبـــين ، و ويل لها من السيـــاسة و السياسيين، الفجرة المنافقين الذين يرشحون أنفسهم و شركاءهم لجائزة نوبل السلمية و يتناسون غاندى.
" و لا بدع ، إن السلم كان يريده غاندى سلم لأرياء فيه ، سلم يقوم على المحبّة و الحق و العدل ، هم إنمـــا يريدون سلمـــا قائما على الـــرياء و الدسائس و الاغتصاب و القهر.
" سلم غاندى حمائم تتناغى على الأغصان، و سلمهم ذئاب تتعاوى حول الأشلاء.
" إن هذه الإنسانية الموبؤة لا تعرف أنها فقدت أفضل أبنائها ، و أحسنهم إلى الناس ، و أقربهم الى اللّه ... "
" إنها فقدت غاندى ... إنها قتلت غاندى

و بعد ، لقد كان غاندى رمز التفاعل الفكرى بين العرب و الهنود، إن محبّته للعرب و تشبّعه بتاريخهم ، ثم إعجاب العرب به و بزعامته فى مقابل ذلك مما رددته حناجرهم و فاض على لسان كتّابهم و شعرائهم لهو خير ما يؤكد أن هذا الرجل الفذ لم يكن للهند وحدها بل كان أيضا للعرب و لسائر الشعوب المتلهفة على الحرية. إنه روح الشرق العظيم التى مازالت تشع على الإنسانية إحساسها العميق بوحدة المصير للجنس البشرى المتطلّع الى حياة بشرية

(c) https://nidaulhind.blogspot.com

خصبة يسودها الحق و العدل ، و تشرق فيها شمس الحقيقة ، لتغمر البشر جميعا بنور الحرية و الإخاء و السلام

الهوامش:

١- إى ، كي ، أحمد كتّي: الهند فى الأدب العربى الحديث، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد: ٥٥، ج ٤ ، اكتوبر ١٩٩٠

٢- تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ، ص ٤٤٠ ، الطبعة ٢٦ ، دار الثقافة ، بيروت.

٣- حضارات الهند ، تعريب عادل زعيتر ، ص: ٤١٦

٤- قصة اللاعنف فى جنوب إفريقية ، تعريب منير البعلبكى.

٥- قصة اللاعنف فى جنوب إفريقية ، ص: ١٨٥

٦- المهاتما غاندى ، فنسنت شيان ، ص: ٢٥٠ ، تعريب محمّد عبدالهادى

٧- قصة اللاعنف فى جنوب إفريقية ، تعريب منير البعلبكى ، ص: ٢٨٢

٨- المهاتما غاندى ، تعريب: محمّد عبدالهادى ، ص: ٢١٩

٩- قصة اللاعنف ١٨٢ ، تعريب منير البعلبكى.

١٠- قصة اللاعنف

١١ - المهاتما غاندى الثائر ، ص: ٥٤ ، تعريب: محمّد عبدالهادى.

١٢- الهند ، الكتاب السنوى ١٩٦٨-١٩٦٩ ، ص ٤٠

١٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٢٤٥

١٤- المهاتما غاندى الثائر ، ص ٤٣ ، تعريب: محمّد عبدالهادى

١٥- المهاتما غاندى الثائر ، تعريب: محمّد عبدالهادى.

١٦- ديوان " الشوقيات " ج/٤ ص: ٨٣ ، مطبعة الإستقامة ، مصر ١٩٥١

١٧- قصة : العاصفة ، من كتابه: العواصف.

١٨- قصة تجاربى مع الحقيقة ، ص: ٢٥٨

١٩- ديوان اديب التقى ، ص: ١٠١

٢٠- ديوانه البراعم ، ص: ٦٥

٢١- ديوان الرصافى ، ص: ٤٧٠

٢٢- خمسة دواوين للعقاد ، ص: ٣١٤ ، مصر ، ١٩٧٣م

٢٣- نفس المصدر السابق ، ص: ٣٥٩ ، مصر ١٩٧٣م

٢٤- ديوانه: على مذبح الوطنية ، ص: ٦٩

٢٥- ديوان القروى ، طبعة وزارة التربية و التعليم بالقاهرة ، ص: ٢٧٩ ، و قد ألقى قصيدته هذه فى حفلة عيدالفطر التى أحيتها الجمعية الخيرية الإسلامية فى سان باولو سنة ١٩٣٣م

٢٦- فى مهبّ الريح ، ص: ١١٣

٢٧- البيادر ، ص: ١٢٠-١٤٢

٢٨- فى مهبّ الريح ، ص: ١١٦

٢٩- ديوانه: " الخريف " ص: ١٦٤ ، سان باولو ١٩٥٤م